الفصل الثالث

تاريخ الغيتو
أو المعتزل اليهودي

بعد أن تشتت اليهود كجماعات على يد الرومان في أنحاء متعددة من تخوم الإمبراطورية الرومانية، وعاشت كجاليات صغيرة ضمن مجتمعات متعددة، ولم يمر زمن طويل حتى بدأت تتبلور الشخصية اليهودية ذات السمعة السيئة، بحيث أصبحت تلك الشخصية ذات نمط إدراكي مجاز تمثل الاستغلال والربا والقسوة والكذب والدسائس والخديعة وكل أشكال الفساد الاجتماعي، لا سيما وأن النبلاء، والطبقات الاقتصادية الأوربية العليا كانت توظّف اليهود كما لو أنهم علقة تمص الدم من الشعوب الأوربية الفقيرة، ثم يقومون على إجبار اليهود باستفراغه، وهذا ما أدى إلى تشكّل عدائية متصاعدة بين الجماعات اليهودية وبين المجتمعات التي تعيش بين ظهرانيها، وكان هناك الكثير من عمليات القتل والاضطهاد والطرد للجماعات اليهودية في المرحلة الإقطاعية الأوربية، كما كنا قد أتينا على ذكره، وكانت أول عملية طرد كانت لهم من فرنسا سنة ١٢٥٣م، ثم تبعتها إنكلترا بأمر من الملك إدوارد الأول، ثم سادت حالات الطرد أغلب دول أوربا، وكان أهمها وآخرها طردهم من أسبانيا سنة ١٤٩٢م، وبذلك بدأ عصر الانحطاط اليهودي في أوربا مع بداية النهضة الأوربية، وبدأ حصرهم في الغيتو، كحل اجتماعي، وكان محل قبول من قبل المجتمعات الأوربية الوطنية، والجماعات اليهودية على حد سواء، في مرحلة الاضطهاد الأوربي لليهود، أو عصر النهضة الأوربية.

والغيتو عبارة عن حي مسوّر ومحمي ضمن، أو على طرف، المدينة مخصص لإقامة الجماعات اليهودية، له باب يفتح صباحا، ويغلق مساء في وقت محدد، وكان فيه اليهود يشعرون بشيء من الأمن والطمأنينة، كما أنهم كانوا يقيمون فيه شعائرهم الدينية الجماعية، وفيه - وبالوقت نفسه - يتجنب المجتمع الوطني الكثير من الأعمال الشريرة اللاأخلاقية، وكان للغيتو أنظمة وقوانين خاصة به تنفذها بشكل عام القيادة الدينية اليهودية،

كما أنه كان يحوي ضمنه عدداً من الجدران والحواجب المذهبية، والقبلية، والعائلية، والطبقية، أي أن الغيتو لم يستطع أن يشكل جماعة يهودية اندماجية فيما بينها، في الوقت الذي ساهم فيه أيضا بعزل اليهود المتزمت، المتعصب، العنصري عن المجتمعات الأوربية، إلى درجة أن يهود الغيتو في القرون الوسطى كانوا يقومون بجدع أنوف النساء اليهوديات اللواتي يقمن علاقة جنسية مع المسيحيين.

وقد بدأ الغيتو بالانحسار بشكل تدريجي منذ القرن السابع عشر، بعد وصول اليهود السفارد إلى الدول التجارية، وقد سقطت أسوار الغيتو مع بداية تشكل المجتمع الأوربي الحديث تحت ضغط البحث عن الوحدة الأوربية من أجل توسيع السوق التجارية الذي أفقد اليهود الكثير من وظائفهم التجارية الطفيلية الوسيطية، وفي منتصف القرن التاسع العشر انتهت السايقات العامة للأعمال الاضهادية ضد اليهود، واستمرت التطورات التاريخية على الغيتو في العصر الحديث، والذي يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى بدأت مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي وامتدت حتى سنة ١٨٨٢م، وهي فترة سقوط جدران الغيتو في أوربا الغربية على وجه الخصوص، وبِدأ اندخال، أو اندماج الجماعات اليهودية تدريجيا ضمن المجتمع الأوربي الغربي، وبروز رجالات وبيوت المال اليهودي، وبِدأت هجرة واسعة تدريجية للجماعات اليهودية اليديشية المتخلفة والمتزمتة من شرق أوربا إلى غربها وصولا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وأما المرحلة الثانية فتبدأ منذ سنة ١٨٨٢م، وتمتد حتى سنة ١٩٤٨م وفيها أخذت الجماعات اليهودية تتمركز في أربع مناطق رئيسية هي الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، وأوكرانيا، وفلسطين.

أما المرحلة الثالثة فتمتد من سنة ١٩٤٨م (سنة إعلان دولة إسرائيل في فلسطين)، وحتى يومنا الحاضر، حيث ازداد تركّز اليهود في فلسطين، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، مع بعض الجماعات المنتشرة في المدن الكبرى لأوربا الغربية.

وقد كان هناك فارق بين تاريخ الغيتو في أوربا الشرقية، وأوربا الغربية خلال العصور الحديثة، فبينما بدأت جدران الغيتو بالتحلل والتفكك مترافقا مع اندماج اليهود ضمن المجتمع في أوربا الغربية، حافظ الغيتو في أوربا الشرقية على تكلسه، وبذلك حافظ اليهود على ملابسهم المميزة ولغتهم اليديشية وثقافتهم التوراتية، وأعمالهم الوضيعة، وكان هناك القليل من الاندماج، واستمرت الحال على ما هي عليه حتى العصور الحديثة حيث خضعت الجماعات اليهودية إلى تأثيرين:

التأثير الأول جاء من الصهيونية التي كانت تروّج وتؤكد ليهود الغيتو على عمق كراهية المسيحي لليهودي.

والتأثير الثاني جاء من يهود اليسار الذين كانوا يروّجون للجماعات اليهودية (أن الثورة الاجتماعية ستعطي اليهود المساواة والحرية، فلا حاجة بهم إذن إلى المسيح الصهيوني)، وبذلك فمن الخير لهم أن يناصروا الحركات الاشتراكية، وعلى الرغم من أن أحد أهم الأسباب التي تشكلت الصهيونية من أجلها هو حل مشكلة اليهود الشرقيين، إلا أنهم، أي اليهود الشرقيين اليديشيين، الذين كانوا يرون أن قبول الهجرة إلى فلسطين هو خضوع اليهود للاسامية، كانوا الأكثر معارضة للصهيونية، على الرغم من أن أكثر القيادات

الصهيونية كانت من يهود اليديشية الذين، وبسبب عزلتهم، وبعدهم عن مركز السلطة والنفوذ (على عكس السفارد)، جعلهم يعتنقون الصهيونية رغبة منهم في الوصول إلى السلطة، والذين في النهاية شكلوا دولة كان ملاطها البشري الأساسي من اليهود الشرقيين، أي أن حالة التكلس التي عانى منها يهود أوربا الشرقية هي أحد أهم الأسباب التي أدت إلى تشكيل الصهيونية، وبالتالي الكيان الإسرائيلي على أرض فلسطين.

أما في أوربا الغربية فإن التحولات التاريخية الأوربية ذات الطابع الاقتصادي، مترافقة مع تصاعد الحركة القومية الأوربية في القرن الثامن عشر، أدى إلى تكوين توجه عام يسعى إلى إزالة ما تبقى من جدران الغيتو، كي يستطيع اليهود الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها، والانخراط في النشاط الإنساني والاجتماعي العام، وهذا ما ساهم في خروج العقلية اليهودية من سجنها، وأصدافها اليهودية المتكلسة، كمارد خرج من القمقم، وبدأت تبرز شخصيات عبقرية من أصل يهودي بعد أن تخلت عن يهوديتها مثل سبينوزا، وماركس، وفرويد، وأينشتاين، وغيرهم من يهود السفارد الذين حققوا صعودا وتميزا اجتماعيا في أوربا الغربية، كما أنهم، وبسبب الانفتاح الاقتصادي العام في أوربة الغربية، إلى جانب امتلاك اليهود، كسواهم، لحقوق المواطنية، فقد حقق بعض اليهود نجاحات مالية كبيرة، وأصبحوا شخصيات شهيرة في العالم الغربي، ولهم تأثير اجتماعي، وسياسي، مثل عائلة روتشيلد، ولكن، وبالوقت نفسه، فقد أدى ظهور المفهوم القومي في أوربا إلى تهميش الجماعات الوظيفية بشكل عام، واليهودية منها بشكل خاص، لا سيما بعد ظهور الرأسمالية الأوربية، كما أدى أيضا إلى تصعيد مشاعر النبذ للجماعات اليهودية على اعتبارهم دخلوا إلى التاريخ الأوربي والثقافة الأوربية من خارجها، لا سيما مع انتشار النظريات العرقية والداروينية التي أفرزت بعض القوميات العنصرية، وما فاقم الوضع سوءا هو دخول بعض اليهود في الحركات المعادية للمفهوم القومي الأوربي، مثل الحركات اليسارية الشيوعية ذات الفكر الاقتصادي، كما أدى انفتاح المجتمع الأوربي إلى مزيد من الاحتكاك بين الأوربيين والجماعات اليهودية، والتي كانت مع بداية الانفتاح قد ألصقت بها الكثير من عمليات الفساد الاجتماعي على اختلاف أنواعه، وكان أشهرها حادثة اغتيال القيصر ألكسندر الثاني سنة ١٨٨١م، وفضيحة بنما ١٨٩٢م، وحادثة دريفوس ١٨٩٤ الضابط اليهودي الفرنسي الذي سلّم معلومات أمنية إلى ألمانيا، وغيرها من الفضائح، وجملة هذه الأسباب أدت إلى تزايد مشاعر العداء لليهود في أوربا، والذي بلغ ذروته بعد وصول هتلر إلى سدة الحكم في ألمانيا.

وبينما قطع اليهود في أوربا شوطا كبير في الاندماج الاجتماعي بعد انهيار أسوار الغيتو، تأخر هذا التطور التحديثي للغيتو عند يهود اليديشية، لعدة أسباب أهمها:

إن الحكومات في أوربا الشرقية في عصر الاستنارة الأوربي (القرن الثامن عشر) كانت حكومات أرستقراطية لم تكن لتهتم بعمليات التحديث المجتمعي كثيرا، ولم تكن تقوم بعمليات التحديث على أسس علمية، بل كانت قد تبنته على أساس قسري الأمر الذي كان ينفّر الجماعات اليهودية من عمليات التحديث.

وثانيا لأن المجتمع في أوربا الشرقية أقل تسامحا وديمقراطية مع الأقليات، لا سيما وأن الجماعات اليهودية كانت ذات مستوى معيشي أفضل من المستوى المعيشي للمجتمعات الوطنية التي تعيش ضمنها، حيث كانت العائلات

اليهودية في دول أوربا الشرقية تأتيها الأموال من أبنائها الذين كانوا يعملون في أوربا الغربية.

وبذلك تأخر سقوط جدران الغيتو في أوربا الشرقية، ومن هنا كانت معاداة اليهود في أوربا الشرقية تعود إلى عوامل اجتماعية اقتصادية عقلانية، ودينية (غريزية عاطفية على أنهم قتلة المسيح)، إضافة إلى العوامل الوطنية والقومية، وقد تشكلت هجرة واسعة للعائلات من أوربا الشرقية إلى أوربا الغربية، وكان تخلفهم، وتكلسهم الحضاري قد سبب إرباكا، ورفضا لليهود ككل من قبل المجتمعات الأوربية الغربية، الأمر الذي سبب إحراجا، وضيقا لليهود السفارد، وبروز ما يدعى بالمسألة اليهودية، والتي طرح لها حلان:

الأول تمثل بطرد اليهود من أوربا، وعزلهم في غيتو عالمي، وقد أُنشئت الصهيونية اليهودية لتقوم بهذا الدور.

والثاني، وهو الذي برز بعد فشل، أو تأخر الطرح الأول في معالجة المسألة، وهو تمثل بإبادة اليهود، وهو الحل الذي تبنته النازية الألمانية.

هذه نبذة عن تاريخ الجماعات اليهودية في أوربا، أما في القارة الأمريكية، فقد وصلوا إليها مع الأوربيين على شكل أفراد، ولم يكن لهم أي حراكية تاريخية إلا في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين، عدا تجربتهم في سورينام وهي جمهورية مستقلة تقع في أمريكا الجنوبية بين جيانا البريطانية والبرازيل وجيانا الفرنسية، وقد وصلت جماعات يهودية سفاردية إليها، شكلت الدفعات اليهودية الأولى التي وصلت إلى العالم الجديد من البرازيل وهولندا سنة ١٦٥٢م، وتبعتها دفعة أخرى من إنكلترا سنة ١٦٥٢م، ولحقت بها جماعات أخرى، وقد حصل جميع سكانها على الجنسية الإنكليزية وتم ضمها إلى هولندا سنة ١٦٦٧م، وقد شكلوا فيها مستوطنة يهودية سمّيت (سافاناه اليهود) سنة ١٦٧٠م وكانت مستوطنة شبه مستقلة، ولكن الصراع الذي كان قائما بين اليهود والعرق الأسود انتهى لمصلحة السود لا سيما بعد انتشار الملاريا سنة ١٧٧٤م والذي أنهى الوجود اليهودي.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد حققوا اندماجا واسعا، نظرا لخصوصية المجتمع الأمريكي الفسيفسائي، والذي يتشكل من مجموعات بشرية متعددة عرقيا، ودينيا، وطائفيا، لا سيما وأن الدستور الأمريكي منذ بدايته أعطى المواطنين حقوقهم المدنية كاملة، الأمر الذي جعل الجماعات اليهودية تمارس كامل نشاطاتها من أبوابه الواسعة، دون أن تلقى أي عمليات رفض كما كان شأن اليهود في العالم القديم، وكان أول من وصل من اليهود إلى الولايات المتحدة من رجال المال، والذين وجدوا فرصتهم الذهبية لاستثمار أموالهم في المصارف والعقارات في البداية، ثم تغلغلوا نحو الصناعات الخفيفة، والمتاجر، خاصة التجزئة منها (السوبر ماركات)، وصناعة أدوات التجميل والمواد والنشاطات الترفيهية، ووسائل الإعلام وقد استطاع اليهود أن يشكلوا شبكة إعلامية إمبراطورية عالمية (صحف - مجلات - دور نشر - إذاعة - تلفزيون - سينما)، وهي جميعها كانت نشاطات ذات مردود اقتصادي عال، وسريع، وقد كان ١١٤ يهوديا من بين ٤٠٠ رجل الأكثر غنى في أمريكا سنة ١٩٨٥م، وقد حققوا ذلك من خلال خبراتهم التجارية، وارتفاع مستواهم التعليمي والعلمي لا سيما بعد أن تبنوا أو أفرزوا اليهودية الإصلاحية، كما أنهم شكلوا أقوى لوبي في الولايات المتحدة لا سيما بعد أن قامت

الصهيونية بنقل مركز ثقلها من لندن إلى واشنطن في سياق الحرب العالمية الثانية، ويصنف يهود الولايات المتحدة بالصهاينة التوطينيين، وهم يُعَدّون سنداً قوياً لدولة إسرائيل ماديا من خلال تبرعاتهم المالية الضخمة، وسياسيا من خلال اللوبي اليهودي، والذي استطاع أن يمسك، بل، ويكاد يستفرد، بزمام الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، فعلى الرغم من أن اليهود يشكلون ٢,٤% من عدد الناخبين الأمريكيين، ولكن لهذه النسبة قوة تفوق نسبة الرقم لعدة أسباب، أهمها:

تركز اليهود في المدن، و لا سيما التي لها دور حاسم في انتخابات الرئاسة الأمريكية (نيويورك، وواشنطن).

كما أن أصوات اليهود تُعَدّ أصواتا فاعلة لأن عدد اليهود الذين يصوتون يشكلون نسبة ٩٢% من مجموع يهود الولايات المتحدة، وهي أعلى نسبة في أمريكا، والتي تبلغ ٥٤% فقط، كما أن أصوات اليهود أصوات قيادية متبوئة مراكز مهمة لا سيما في السياسية، والاقتصاد، الأمر الذي يجعلها إعلامية، إضافة إلى مساعدة اللوبي المالية في الحملات الانتخابية، كما أنها على علاقة تبادلية مع دولة إسرائيل، فاللوبي يتحدث باسم الخدمات التي تقدمها دولة إسرائيل للهيمنة الأمريكية، ودولة إسرائيل ترفع صوتها متسلحة بقوة اللوبي اليهودي في أمريكا.